من ضحايا العقل (١)

ينتبط لبنان ، وقد قام بقسطه من تكريم أبي العلاء في تمام الذكرى الألفية في شهر آذار الفائت ، بان يشارك اليوم الدول العربية في تشييد هذا الصرح الفخم لحكيم المعرة، هذا الصرح الذي وضع أساسه المجمع العلمي العربي، وتبارى في رفع بنيانه فنانو العمارة في مصر والعراق وفلسطين وشرقي الأردن وسوريا ، فكان للبنان أن يأتي بحجره المتواضع ، مستوحياً من هذه الأبحاث النفيسة المتوالية علينا طول الاسبوع في تحديد ابي العلاء ، سائلاً ، ماهو سر الحيرة في هذه الشخصية العجيبة ؛ وما هي قيمة ذاك المقياس العقلي الذي اتخذه المفكر في قدر الطبيعة وما وراءها ، فاغتر بعصمته ، مؤملاً ان يخرج به من تلك الحيرة . حتى اذا خذله المقياس ، رأيناه وهو المفكر مؤله العقل ، يهوي صريعاً من ضحايا عقله .

* * *

والذي حارت البريةُ فيه حيوانٌ مستحدثٌ من جمادِ

منذ أن وقف الانسان ذاهلاً أمام مظاهر الطبيعة ، مُتشوفاً ، في تفهمها ، الى ماوراء الطبيعة ، دخلت الفلسفة في العالم . وكان محورها ، ولا يزال ، هذا الانسان نفسه ، الحائر في كيانه ومصيره حيرة البرية جمعاء . يتناول بطرفه بسائط الأرض ، ويرقى بخياله معارج الأفلاك ، ثم ينكفئ على عالمه الأصغر ، متأملاً متسائلاً قادراً مركزه من المجتمع ، ومن العالم الأكبر بكامله ، مقابلاً بين تلك « القصبة الصغيرة » على قول بسكال ، وهذا الكون الهائل ، بين مسكنة القصبة تجاه جبروت الكون ، وصغر هذا الكون تجاه سمو الفكر في تلك القصبة . بين اللامتناهي في الصغر

(١) الكلمات التي وردت متأخرة لم تذكر في برنامج الحفلات ، ألحقت بالحفلة السادسة وألقيت فيها .

واللامتناهي في الكبر يقف الانسان وسطاً معتدلاً في هذا النظام الكوني الشامل واذا به المحمول والموضوع في التفكير الفلسفي . بل هو القائس والمقياس والمقيس . يتدرج من المظاهر الى اسبابها ، ويتقصى الأسباب الى سببها الأول ، فيأتي بالشروح والحلول والتعليلات المتباينة .

ويكون العقل اليوناني ، فينسق ويرتب ، ويطلع بالنظم الفلسفية على بناء متماسك.

ويبدأ النقل على عهد الامويين . فتصطدم المدنيتان . وينتبه الفكر العربي من طمأنينته ، فيسأل ويقلق ، ويحاول بدوره الحلول والشروح والتعليلات . ويحاول الاتيان بالنظام المتناسق على يد الفارابي ، بعد ان يتمرس بالمذاهب والبدع والأهواء فمن قدرية يثيرون مشكلة الحرية والاختيار الى جبرية يهولهم الانتقاص من قدرة الله فيسكنون الى القضاء والقدر ؛ ومن معتزلة يشيدون بذكر العقل مادام العقل يوافق نزعاتهم ، الى أشاعرة يلوذون من المنطق بالمنطق ، الى فلاسفة يحاولون التوفيق بين الحكمة والشريعة فلا يوفقون الا الى وضع الواحدة إزاء الأخرى ، متقابلتين حيناً متدابرتين أحياناً . وناهيكم بالديانات المختلفة كاليهودية والنصرانية بطوائفها ومذاهبها من يعقوبي ونسطوري وملكاني وماروني ، والمجوسية بتنوع مظاهرها من زرادشتي ومزدكي ومانوي ، والبوذية وما تتفرع اليه من انواع العبادات والتقشفات .

في هذه البوتقة الجائشة نشأ ابو العلاء . وفي هذا الخضم المتلاطم تاهت فكرته متلمسةً مستهدية .

يترك بلدته المعرَّة فريسة النزاع السياسي ، ويهبط انطاكية ، فتزعجه أصداء المجادلات البزنطية الشهيرة . فينتقل الى اللاذقية ، فتقلق عليه سكينته تلك الضجة الصاخبة « بين أحمد والمسيح » . فيعرج على أحد الرهبان يحاوره ويجادله . ويكون الراهب قد « درس الفلسفة وعلومَ الاوائل » ، كما يقول المؤرخون . فتنفتح لأبي العلاء على النصرانية واليهودية ، وعلاقة الدين بالدنيا والطبيعة بما وراؤها ، آفاق يرتادها تنقلاً واتساعاً ، ولا يتوقف على نقطة منها عمقاً وتأملاً . فلا يفيد الا إلمامات كافية لتغذية شكه واستخفافه بالعبادات على السواء .

وينتقل به الحظ الى بغداد . وبغداد تحيش بالمناقشات الدينية والمناظرات الفلسفية ، والمجادلات العلمية ، على حرية تامة في الفكر والقول ، واحترام متبادل بين المتناظرين ، وتساهل نسمع به اليوم ـ بعد الف سنة ـ فنخجل من أنفسنا . وقد وصف لنا الذهبي بعض هذه المجالس الكلامية بما إستعاذ منه بالله واسترجع اليه . الا انه أفادنا الفائدة كلها في تاريخ الحركة الفكرية في ذاك العصر . قال في حوادث سنة ٣٧٢ للهجرة (٩٨٢ م) .

«في هذا الزمان كان الأهواء والبدع فاشية بمثل بغداد من الرفض والاعتزال . فانا لله وانا اليه راجعون . ذكر الحميري في ترجمة ابي عمر احمد بن سعدي الاندلسي الفقيه طامة كبرى ، قال: « سمعت أبا محمد بن أبي زيد الفقيه يسأل أبا عمر بن سعدي عند وصوله الى القيروان من بلاد المشرق فقال : هل حضرت مجالس اهل الكلام ؟ قال : نعم ، مرتين ولم أعد اليها. قال : ولِمَ ؟ فقال أما أول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق من السنة ، والبدعة ، والكفار ، واليهود ، والنصارى ، والدهرية ، والمجوس . ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه . فاذا جاء رئيس قاموا كلهم له على أقدامهم حتى يجلس . فاذا تكاملوا ، قال قائل من الكفار : « قد اجتمعنم للمناظرة ، فلا يحتج أحد بكتابه ولا بنبيه . فاننا لا نصدق بذلك ولا نعتد به وإنما نتناظر بالعقل والقياس » . فيقولون : نعم . ولما سمعت ذلك لم أعد ثم قيل لي : هذا مجلس آخر للكلام . فذهبتُ اليه . فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم . فقطعت مجالس أهل الكلام » .

وفي بغداد تعرّف المعري الى المجوسية وآرائها ، وإلى البوذية . أو السومانية كما كان يقال ، ومبادئها في تحريم لحم الحيوان ، والميل الى حياة صارمة متقشفة كثيراً ما تقود إلى النسك الكئيب المتشائم . وفي بغداد كذلك سمع بالتناسخ وباحراق أجساد الموتى ، فأعجبه هذا ، واستنكر ذاك .

وإذا أضفنا إلى هذه المعلومات الدخيلة ما غُذي به ، منذ طفوليته ، من علوم العربية الأصلية ، وما لُقن من شعر القدماء وأحاديثهم وأساطيرهم ، صحّ لنا أن نبرّر قوله :

ما مرَّ في هـذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرَف

هو « الأخذ من كل شيء بطرف » ، وهو تحديد الأدب في نظر القدماء . أو نخطيء ، نحن اليوم ، إذا قلنا بهذه الثقـافة العلائية إلى الأدب في سعته وتسطحه عن العلم في عمقه وتناسقه ؟

كلُّ هذه البذور صادفت تربة خصبة في عقلية أبي العلاء المطربة القلقة ، فنبتت كما شاءت تتجـاور ولا تكاد تتعارف ، بل هي في نزاع دائم وصخب مستطيل حتى يعجّ الجدل في دماغ الأعمى ، وقد حُجب عنه كلّ ملهى ، وسدّ عليه كل سبيل للتسلية والترفيه ، وإذا به يحاور عقله ، ويجادل نفسه الليـل والنهار ، يسأل ويقارن ، وقد لا ينتظر الجواب ، بل كثيراً ما اكتفى به استفهاماً منكراً ساخراً ، وكأن تنبهه إلى مواضع النقص من البشر ، وشدة استحيائه منهم ، وحذره من غمزاتهم عليه وأقاويلهم فيه .

يروّعه السرار بكل أمرٍ مخافة أن يكون به السرار

دفعته إلى اتخاذ تلك الدرع من الهزء بهم ، والسخر من أعمالهم ، وأكثر ما يكون هذا السخر حاجزاً يلجأ إليه بعض الضعفاء الخيبين فيفاجئون الناس بما يخافونه منهم ، وأعمى المعرة كان من هؤلاء فسخر وأسرف في السخر ، حتى لم ينجُ منه أحد ، لا من كبار القوم ولا من صغارهم ، لا من رجال الدين ولا من رجال الدنيا ، لا من الأحيـاء ولا من الموتى ، لا من عامة البشر ولا من الأنبياء ، لا من الملائكة ولا من الجنّ ، وكان يمتزج هذا السخر بشيء من الحسرة ولد تشاؤماً كئيباً وسوء ظن بالناس لم يختصّ بالنساء وحدهنّ بـل شمل بني آدم أجمعين ، وارتقى أحياناً إلى الخالق نفسه .

وكان من نتائج هذا الغليان الفكري ، ومن أثر تلك الحالات المتناوبة عقلية الشاعر الحساسة القلقـة ، شذور أحكام وشتى آراء مسكوكة سكّ النقود المعلمة يتداولها الناس فيستنتجون منها المذاهب المتناقضة ، والعقائد الغريبة ، يُزري عليه بعضهم إلحاده الوقح ، ويبرئه غيرهم من « وصمة الكفر الشنعاء » ، ويقيمه فريق آخر زعيماً لأرباب الشك والارتياب ، ويبني له غـير هؤلاء صرح الفلسفة المادية عالياً ، ولكل فريق أسانيد صارخة في « اللزوميات » وفي

غير « اللزوميات » ، يشرحونها ويؤولونها ، ويعلقون عليها ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

بيد أن الخطب أيسر من ذلك في نظرنا ، فليس أبو العلاء بالكافر الملحد ، ولا بالمؤمن المستسلم ، ولا بالشاك الحائر شكاً علمياً ، ولا بالفيلسوف المادي . إنما هو ذكاء حاد ، وعقل معجب بذاته حتى الغرور ؛ وشعور مرهف بوطأة مصايبه خاصة ومصايب قومه عامة ؛ وفضول مستيقظ لما يقال في زمانه — وفي كل زمان — في جور الحكام ، وفساد الأخلاق ، وحيل النساء خاصة ، ورياء رجال الدين ؛ وبقية إيمان في قرارة النفس تكاد تخنقها هذه الموجات الطامية ، ثم هو ، فوق ذلك ، بلاغة صارخة على هدوئها ، وحجة دامغة ، واستنتاج جارف لا يقف لدي تحفظ ، ولا يأخذ باحتياط ، ومقارنات مفاجئة كانت في أصل ذاك السخر الهدام .

ولكان أبو العلاء غير هذه الشخصية المبددة لو أمكنه أن يتعمق في درس الأصول الدينية فيميز بين الشريعة في روحها ومظاهر تطبيقها في العالم ولا يحمل النبوات نفاق بعض اتباعها ورياء بعض ممثليها . ولو أمكنه ، كذلك أن يتلقى المبادئ الفلسفية على وجهها الانساني الأصيل ، غير مكتف بغبار المجادلات وزبد المناظرات ، لما اغتر بالعقل الحسي المشترك وحده يجعله إمامه في كل شيء .

هذه خطوط عامة في تصوير شخصية أبي العلاء ، قد تكون متقطعة وقد تكون واهية ، ولكنها ضرورية في نظرنا ، لنتمثل المفكر قبل الولوج إلى فكرته .

أما موضوعات هذه الفكرة أو أهداف الحملة العلائية ، فقد ترد إلى أربعة :

١ — العناية ألالهية . وهي ، لو كانت موجودة ، لعنيت بالنظام والعدل في هذا العالم ، فلم يسيطر فيه الشر ولم تتوال المصايب على ابي العلاء ؛ تلك المصايب التي لم يجد لها سبباً في اعماله ، ولا في حياته الخاصة المكتنفة بالعفاف والزهد .

٢ — الحقائق الدينية بمجملها في جميع الديانات ، والشرائع التي تسمح للناس بالاساءة إلى الناس .

٣ — مصير النفس بعد الموت ، وكل ما تعلق بذلك من بعث وثواب وعقاب .

٤ — هذا المجتمع البشري الفاسد الذي لا دواء له إلا قطع النسل . ومن هنا حملته على الزواج ، وبالتالي على المرأة .

وقبل أن نشهد الأعمى في هذا المعترك اليائس ، لنتفحص معداته للقتال ولنتعرف مقاييسه ، فنراه أعزل إلا من العقل .

كذب الظن لا إمام سوى العقـــــل مشيراً في صبحه والمساء

سأتبع مَنْ يدعو إلى الخير جاهداً وأرحلُ عنها ، ماإمامي سوى عقلي

ولكن أيّ عقل هو ؟ ولأي شيء يصح مقياساً ؟

ينتج من اللزوميات أن المقصود بهذا « العقل » الذي يردد ذكره أبو العلاء في أكثر الصفحات ، فيلوذ به كلما عرضت له مشكلة ، هذا الحس ، أو الادراك ، أو بادي الرأي المشترك بين الناس يأخذون به في اختبارهم اليومي وأحكامهم الجارية ، هذا الإدراك العامي الذي جعله ديكارت مُشاعاً بين البشر .

هذا العقل الحسي الشائع يصلح مقياساً للمحسوسات ، فهو سيد في منطقته المادية ، أما إذا ارتفعنا به إلى ما فوق فلا يرى إلاّ الانكار والنفي ؛ حتى في الشؤون الطبيعية التي لا تقع تحت حسه ، كأن ينفي في القرون الوسطى أن تكون الشمس ثابتةً والأرض تدور ، وكان من حقه أن ينفي ، لثلاثين سنة خلت ، أن يسمع أهل دمشق مثلاً رجلاً يتكلم في بغداد .

هذا العقل الحسي ، هذا المقياس البسيط ، هو الذي تسلح به أبو العلاء فأقبل على الكون بأجمعه ، يقيس كلّ شيء ، ويجادل في كل شيء ، تحت راية ذاك العقل ، فلا عجب أن يُثير كثيراً من الغبار ، ويحدث ضجةً ، لا تزال أصداؤها تتردد حتى اليوم في أنحاء الاعتراضات السطحية والاحتجاجات العامية ، وأيّ فرق بين هذا الشاعر المفكر والرجل العامي لا يفهم أحكام ما يفوق « عقله » من الشؤون فيزري بهـا ، سوى تلك اللذعة التهكمية ، وذاك التساؤل المغري بالتشكيك واللاأدرية ، أوَ لم يقلد المعري في « عقله » كثير من الشعراء ، فعرضوا الاستفهامات عديدة في مجالي الكون ، وتصوروا أنهم أدركوا قمـــة التفكير الفلسفي إذ أجابوا عن كل ذلك بتعبير واحد : لستُ أدري !

ذلك أن لكل مقيس مقياساً خاصاً ، ولكل نظام في العالم محكاً من نوعه ، فلا تكال الأرض بالصاع ، ولا يقاس الفكر بالقفزان .

ولا نرى أبا العلاء ميز في صلاح مقياسه العقلي بين نُظم العالم المتدرّجة من الطبيعي المادّي ، إلى الانساني الفكري ، إلى الالهي فائق الطبيعة ، فكان لا بدّ من فساد النتيجة إذ فسدت المقاييس ، وكان لا بدَّ من أن ينفي وجود الملائكة والجنّ كما ينفي وجودَ فلان من الناس في بيته مثلاً ، والدليل المشترك بين النفيين هو كونه لا يحسّ بهما :

قد عشتِ عمراً طويلاً ما علمت به حسّاً يُحَس لجنيّ ولا مَلَك

أخذَ ابو العلاء بهذا المقياس في اختباره المادّي فصحّ مقياساً للأحكام ، وأمكنه أن ينفي وجود الفلان في بيته لأنه لا يحسّ به . فخال المقياس صحيحاً كذلك في الشؤون الفائقة المادّة ، ومَنْ من المفكرين لا يميز بين هذين العالمين الفارقين ، فينتقل من الواحد إلى الآخر بالمقياس نفسه ؟ إلا إذا شاء أن يتظرف أو يتماجن فعل أبي نواس ، ولا نراه بعيداً عن أبي العلاء في استخدامه هذا القياس :

ما جاءنا أحـــدٌ يُخبر أنه في جنة مذمات أو في نار !

وينتقل الشاعر بمقياسه من الجن والملائكة إلى الله فيقول :

أما الإله فاني لست مدركه

وهو على حقّ وإخلاص في قوله ، لانه لن يُدرك الإله عن هذا الطريق . على أن الطبيعة الإنسانية ، طبيعته التامة ، كانت كثيراً ما تثور على هذه النتائج المنطقية الفاسدة ؛ فيسكن أبو العلاء إلى الإيمان :

أثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر النفاة

* * *

انفرد اللهُ بسلطانه فماله في كل حالٍ كفاء

ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء؟

ثم يعود بعقله إلى العالم الروحي ، فيرى الديانات المتباينة والعبادات المختلفة ، والشرائع المتناحرة أحياناً ، وكلها تدّعي صحة الدين ، وطهارة الايمان ، والعمل

على خلاص البشر ، فيضيع مقياسه في ذلك ، ولا يرى أفضل من أن ينكرها جميعاً ، حاكماً عليها بالضلال لأنها تخالف « العقل » :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت والهود حارت ، والمجوس مضللهْ
اثنان أهل الأرض ، ذو عقل بلا دينٍ ، وآخر دَيِّن لا عقل لهْ !

* * *

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالمذاهب وازدراها
وَهت أديانهم من كل وجهٍ فهل عقلٌ تشدُّ به عُراها !

وذاك ان اختلاف العبادات يظهر جديراً بالازدراء في نظر هذا العقل، فلو كان الجوهر واحداً ، لما تباينت الأعراض :

عجبتُ لكسرى وأشياعه وغسلِ الوجوه ببولِ البقرْ
وقولِ النصارى : إلهٌ يُضامُ ويظلم حياً ولا ينتصر
وقولِ اليهود : إلهٌ يُحب رِشاشَ الدماء وريح القتر
وقومٍ أتوا من اقاصي البلادِ لرمي الجمار ولثم الحجر
فواعجباً من مقالاتهم ! أيعمى عن الحق كل البشر(١)

أجل هذه مفاعيل المقياس المادي الضيق الذي لا يمكنه أن يتجاوز الأعراض الى الجوهر الروحي لأنه من نظام مادي . ولا مندوحة لنا في قدر هذا الفرق قدره الصحيح من تذكر ما أشاد به بسكال من تدرج الأنظمة في العالم : النظام المادي وله مقاييسه ، والنظام العقلي وله مقاييسه كذلك ، والنظام الروحي ، أو نظام المحبة ، وله مقاييس خاصة . ومن لم يتح له تجاوز النظام الى تاليه فيستعمل لكل نظام مقياسه الخاص ضلَّ ولم يستصبح بنور . هذا المعري يرى تنوع الديانات في اعراضها فينكرها جميعاً ويرمي أصحابها بالعمى . وهذا ابن عربي يتحقق التنوع نفسه ، ولكنه يتجاوز في حكمه نظام المادة الى نظام المحبة فينفذ من الأعراض المتباينة الى الجوهر الموحد ، فيتحقق ان لامعبود في الواقع الا الله ويصيح :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ فمرعى لغزلانٍ ودير لرهبانْ
وبيت لأوثانٍ وكعبة طائفٍ وألواح توراةٍ ومصحف قرآن

(١) سواء اثبتت نسبة هذه الابيات أم لا فانها تصور الفكرة العلائية في صميمها .

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

***

ولنعد الى إله أبي العلاء، الذي يعود اليه بعقله ، فلا يمكن أن يتصوره خارجاً عن الزمان والمكان . وقد كان مشكل ازلية العالم لايزال يحير الأدمغة في ذاك العهد . فاذا كان العالم أزلياً ، كان الزمان ـ وهو امتداد الحركة ـ والمكان ـ وهو امتداد الاقطار ـ ازليين كذلك :

ولو طار جبريل بقية عمره ... من الدهر، ما اسطاع الخروج من الدهر

فصار الله ضمن الزمان وضمن المكان :

قالوا : لنا خالق قديم ... قلنا : صدقتم ، كذا نقولُ
زعمتموه بلا زمان ... ولا مكان ؛ ألا فقولوا :
هـذا كلام له خبيءٌ ... معناه : ليست لنـا عقول !

اما الجنس البشري في هذا العالم الأزلي فليس من الضرورة ان يبدأ بآدم المعروف ، بل قد يرقى في القدم الى الأزل . و لمَ لا ؟

خالق لايشك فيه قديم ... وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدمُ هذا ... قبله آدم على إثر آدم !

والديانات ظواهر اجتماعية تأتي وتزول :

أتى عيسى فـأبطل دين موسى ... وجاء محمد بصـلاة خمس
وقيل يجيء دين بعد هـذا ... فأودى الناس بين غد وأمس
إذا قلت المحال رفعت صوتي ... وان قلت اليقين أطلت همسي

ولا تترك بيننا إلا التفرقة والإحن والعداوات :

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً ... وأورثتنا أفانـين العداوات
وهل أبيحت نساء الروم عن عرض ... للعرب الا باحكام النبوات

ثم يتناول الشرائع وتناقضها الظاهر في نظره :

يد بخمس مئين عسجداً وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا الا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار

وهو فساد قياس أدّي إليه سوء الفهم لروح الشريعة . وقد انتبه له الكثيرون ممن تعقبوا المعري بالنقد والرد والشتم والتكفير . قال ياقوت جامعاً كل ذلك « كأن المعري حمار لا يفقه شيئاً . وإلا فالمراد بهذا بين : لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار لكثر سرقة ما دونها طمعاً في النجاة . ولو كانت اليد تودى بربع دينار لكثر من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية عنها . نعوذ بالله من الضلال ؟ »

ومن المشاكل التي اثارت خيال المعري ، وأرهفت حسه ، وأقلقت عقله مشكلة الانسان : كيانه ومصيره .

أولم يكن من الافضل ألا يكون ؟

ريب الزمان مفرق الالفين فاحكم الهي بين ذاك وبيني
أنهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت انت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان اغناها عن الحالين

أما الموت فيتوق إليه المعري على خوفه منه . يتوق إليه لان فيه راحة وغنى

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها ، والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحياة فما أعجب الا من طامع في ازدياد

* * *

أصبح في لحدي على وحدتي لست إلى الدنيا بمحتاج

* * *

فمالي أخاف طريق الردى وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشةٍ مرةٍ ومال أضيع ومال ملك

ولكنه يخاف على الرغم من هذه المحاولة في الاقناع

وخوف الردى آوى الى الكهف أهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده ، جنتي عدن

ويقول ، وملء جوانحه الرعب والأسى :

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل

ثم يخص نفسه ، فيتصور انقضاء اجله واهتمام الناس بحفر قبره في تلك الصورة المفزعة :

يكر الحول بعد الحول عني وتلك مصارع الأقوام حولي
كأني بالاولى حفروا لجاري وقد أخذوا المعاول وانتحوا لي

وأما ما وراء الموت ...

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالارواح أني تسلك

ولندعه على عيه بالارواح هنيهةً ، منصرفين الى ما يستخرجه خياله الخصب من نهاية الجسد وتحوله الى تراب :

تعود إلى الارض أجسامنا وتلحق بالعنصر الطاهر
ويقضي بنا فرضه ناسك يمرّ اليدين على الظاهر

* * *

تيمموا بترابي علّ فعلكم بعد الهمود يوافيني بأغراضي
وان جعلت بحكم الله في خزف يقضي الطهور، فاني شاكر راض

فاذا كان الانسان نهايته الى إناء الفخار

فلا يمس فخاراً من الفخر عائد الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرّةً فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لارض ومادرى فواهاً له بعد البلى ، يتغرب

وأعجب بتغرب هذه العناصر بعد هلاك المركب الجامع .

وما أقرب فكرة التحوّل هذا إلى رباعية الخيام ، وقد دخل معمل الخزّاف فتخيل سماع الأرواح ترتفع إليه من خلال الطين المجبول ! قال (في تعريب وديع البستاني) .

أمسِ أبصرتُ جارنا الخزافا يجيل الطين كيف شاء اعتسافا
ويكيل المقدار منه جزافا

وكأني سمعت بين يديه صوت مظلومة تشكى لديه
آه رفقاً ! فأنت طين وماء أيها المرء ، لا تسمني العذابا !

هذا النفع المادي من مآل الأجسام البشرية يتوسع فيه أبو العلاء حتى التصورات المزعجة . فيذكر أجساداً كانت جديرة بالصون وقد صارت في طلاء الجدار » .

وكم من رجال جسومهم عُفرُ تبنى بهم أو عليهم الجدُرُ

وهذه الصورة ، وهي أروع وأشد وقعاً لما فيها من التخصيص والتضاد :

لعل مفاصل البناء تُضحي طلاءً للسقيفة والجدار

ويبلغ به التصور الخيالي أن يرى سطح الأرض كله من تراب الأجسام فيربأ بالموتى أن يدوسهم الأحياء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ رض إلاّ من هذه الأجساد

سِرْ إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد

وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

وكيف بهذا التصوّر الفسيح الغنيّ إن علق به الشاعر الفارسي فأشار إلى عادة الفرس في إراقة القطرات من الكأس قبل شربها :

ما جُزافاً ما قد أراق السقاة ! لا لعمري بل تلكمُ صدقات

إنما الترب يا ندامى رفات !

فليريقوا فتلكم القطراتُ لكبودٍ تذيبها الحسرات

وليريقوا لعلها مطفئات لوعةً في الثرى تؤجج التهابا !

* * *

هذا مصير الأجسام . وأما الأرواح ، وهي لا تقع تحت الحسّ ، فلم يكن لعقل المعري أن يجيب عن مصيرها بشيء .

فهل تحس إذا بانت عن الجسد ؟

أم انها تنتقل من جسد إلى جسد وفقاً لزعم الهنود في التناسخ ؟ وهل تدخل جسد الحيوان في تنقلاتها ؟ وهل هناك بعث ؟ وحشر ؟ ودينونة ؟

أما العقل فيقول :

ولم نر بطن الأرض يلقي لظهرها رجالاً كما يلقي الى بطنها الظهر

* * *

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد لنا سبك

ويرفض التناسخ :

يقولون إن الجسم يُنقل روحه إلى غيره حتى يهذبه النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلةً إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل !

واما بقية الايمان فتصيح :

وقدرة الله حق ليس يُعجزها حشر لجسم ولابعث لأموات

* * *

اذا ما أعظمي كانت هباءً فان الله لايعييه جمعي

بل هي تناضل عن هذا الايمان بالبعث ، وتراهن عليه ، قبل الغزالي بنصف قرن ، وقبل بسكال بستة قرون :

زعم المنجم والطبيب كلاهما ان لامعاد . فقلت : ذاك إليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي ، فالوبال عليكما

***

وكيف يثيب الله الناس أو يعاقبهم على أفعالهم ، وهم غير مخيرين فيها .

وهل في هذا الكون القديم السائر منذ الازل الى الابد ، مكان لاختيار أو أثر لحرية ؟ وكيف يؤمن العقل بالحرية والتخيير .

والمرء يقدمُ دنياه على خطرٍ بالكره منه، ويناها على سخط ؟

***

ماباختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي ، فهل لي بعد تخيير ؟

كان عراك الجبرية والقدرية قد خفَّ في المجتمع الاسلامي . ولكنه لم يخف ولن يخف في الفكر البشري ، وهو المقابل بين معرفة الله الشاملة وارادته المطلقة من جهة وعدله بين الناس في توزيع الثواب والعقاب وما يفرضه ذلك من مسؤولية فردية وبالتالي من حرية اختيار .

اما ابو العلاء فقد كان جازماً في حكمه ، غير متردد في استنتاج كل مايمكن من هذا المبدأ . فحمل على القائلين بهلاك من يفعل الكبائر .

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على مايفعلُ

وتجاوز حتى جعل المدح والذم لامعنى لهما لأن الانسان غير مخير في اكتسابهما. وقال إن تأليفه الكتب ونظمه الشعر بقضاء وقدر .

وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح الاصلاح لا يرجى في المجتمع ، وظل الانسان شريراً بطبعه ، كما يقول ، وظل الفساد غريزة فيه ، لا يمتاز أحد عن الآخر في هذا الأمر :

إن مازت الناس أخلاق يقاس بها فانهم عند سوء الطبع ، أسواء

أو كان كلّ بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت للناس حوّاء

وإذاً فقد كان طبيعياً أن يفضل المعري الحيوانات على البشر ، بل يفضل تسريح برغوث على عمل الإحسان :

تسريح كفي برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا !

اما الخلاص من الشر الاصيل في البشر فلا سبيل اليه الا العدم أي قطع النسل :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء

ومن نظريات المعري الحبيبة الى قلبه ان الآباء يجنون على ابنائهم :

على الولد يجني والد ولوانهم ولاة على أمصارهم خُطباء

وهو مايبرر تلك الوصية الغريبة التي شاءها ان يُكتب على قبره :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد !

ولا سبيل الى قطع النسل الا بتحريم الزواج ، فينقطع بذلك الشر في العالم . وقد سهل له عقله ، وهو الشفيق على البرغوث ، أن لايتراجع عن وأد البنات :

ودفن ، والحوادث فاجعات لاحداهن احدى المكرمات

بل ان عقله هذا يقوده الى تصور امور يبتسم لها في التساهل بتزويج البنات شرط أن لا يزوج البنون :

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج

ولا نعلم بما نعتذر عنه في حملته على النساء . وما كانت تلك الحملة مقصودة لنفسها . الا انه جر اليها في حملته على النسل البشري . ولو لم توجد المرأة لكان ذلك بدء السعادة . اما وقد وجدت فينبغي .

لزومها البيت مع اهتمامها حتى يجيها الوفد من حمامها

وطبيعي أن يكون تعليم النساء امراً مفروغاً منه في نظر المعري :

علموهن الغزل والنسج والرد ن وخلوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاة بالحمد والاخلا ص تغني عن يونس وبراءه

* * *

ولا تحمد حسانك ان توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهنّ من اليراع مقلمات

واذا كان لابد لهن من تلاوة شيء من القرآن فلينظر الى عجوز متناهية الكبر فاقدة الاسنان :

ليأخذن التلاوة عن عجوز من اللائي فترن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأنمات
فما عيب على الفتيات لحن اذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من شيخ ضرير يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المتثغمات

وكأنه يتصور مطالب النساء الكثيرة ومراميهن البعيدة فيرسم لهن تلك الصورة المتحركة على مهلها :

أعوذ بالله من ورهاء قائلة للزوج : إني الى الحمام أحتاج
وهمها في أمور لو يتابعها كسرى عليها، لشين الملك والتاج!

* * *

ولم يفت نظام المجتمع فكر المعري ، وقد كثر فساد الحكم في عصره . فحكم عقله في السلطة ومبدإها ، وطلع علينا برأي كان جديداً في القرون الوسطى المؤمنة بان كل سلطة من الله الخالقة حول صاحب الامر هالةً من الكرامة والتبجيل . واذا باعمى المعرة يفتح أبصار الناس على أن مصدر السلطة الشعب وان الامير خادم الرعية :

ملّ المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها ، وهم أجراؤها !

ثم يستنكر عقله أن يكون البشر طبقات متمايزة في الشرف والحقوق وهم متساوون في الاصل والجبلة ، فيصيح :

لا يفخرن الهاشمي على امرئٍ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر

هذه المساواة بين البشر يريدها كذلك في الممتلكات ، رامياً الى شيء من الاشتراكية ، لفظاً على الاقل :

لو كان لي ، أو لغيري قدر أنملة من البسيطة ، خلت الامر مشتركا

***

من الاله ؛ الى النبوّات والشرائع ، الى مصير الاجساد والارواح ، إلى مظاهر المجتمع . لمحات خاطرة ، ونفذات مشعة ، وأحكام تتفاوت خطأ وصواباً ، وآراء تتباين عمقاً وتسطحاً . هي حجارة من مقالع مختلفة نحتها الشاعر الجاهد فزخرف بعضها ، وصقل البعض الآخر ، وتركها مبعثرة معالم على طريق المفكرين دون أن يشيد منها ذاك الصرح الموحد التصميم ، الموحد البنيان في التفكير البشري المتناسق . إلا أنه ، وإن لم يوفق الى السير في سمت الفلسفة الانسانية السوية ، فقد كفاه فخراً أنه بدأ ، منذ ألف سنة ، بحر هذه الاداة العجيبة التي تجعل من الكائن البشري انساناً كاملاً ، ألا وهي العقل !

فؤاد افرام البستاني
مندوب لبنان